

International Journal of Advanced Engineering Research and Science (IJAERS)

Peer-Reviewed Journal

ISSN: 2349-6495(P) | 2456-1908(O)

Vol-10, Issue-10; Oct, 2023

Journal Home Page Available: https://ijaers.com/

Article DOI:https://dx.doi.org/10.22161/ijaers.1010.6



الفقر والحرابة ببلاد المغارب خلال العصر الوسيط

Poverty and banditry in the Maghreb during the Middle Ages

الباحث1: يونس شيكر YOUNESS CHIGUER أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي، دكتوراه تخصص التاريخ الوسيط. مختبر التاريخ والمجتمع في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل ـ القنيطرة، المغرب، 0668993920 **Chiguer.youness78@gmail.com**

الباحث 2: مصطفى شيكر MUSTAPHA CHIGUER، ذ. الثانوي التأهيلي، دكتوراه تخصص جغرافية الأرياف والإعداد، مختبر إعداد المجال والتربية الترابية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب. 0675353221، chiguermustapha74@gmail.com

Received: 10 Aug 2023,

Receive in revised form: 15 Sep 2023,

Accepted: 28 Sep 2023,

Available online: 08 Oct 2023

***Keywords*— thieves - bandits - poverty - the Islamic Maghreb - the Middle Ages – community.**

الكلمات المفاتيح: اللصوص – قطاع الطرق – الفقر - المغرب الإسلامي – العصر الوسيط – مجتمع.

***Abstract*—** *The subject of this research focuses on studying one of the social phenomena that disturbed society and authority alike in the Maghreb countries during the Middle Ages, and it is related to the phenomenon of banditry and banditry and its relationship to poverty, and then searching for the role of poverty and fragility in exacerbating the processes of theft, robbery and looting, and thus the extent to which it contributes Poor social and natural environments create aggressive behavior such as eavesdropping, banditry, and disruption of security in general, and road security in particular, in addition to other factors in which the natural and the human intersect. Conversely, how banditry was considered a minus of a danger that was knocking in the face of society, alerting to the great defect that it knew. The economic and social structure in the countries of the Islamic Maghreb in the Middle Ages, and how warfare also constituted an aspect of opposition to those regimes responsible for that imbalance.*

ملخص

ينصب موضوع هذا البحث على دراسة واحدة من الظواهر الاجتماعية التي أرقت المجتمع والسلطة على حد سواء في بلاد المغارب خلال العصر الوسيط، ويتعلق الأمر بظاهرة اللصوصية وقطع الطرق وعلاقتها بالفقر، ومن ثم البحث عن دور الفقر والهشاشة في تفاقم عمليات السرقة والسلب والنهب، وبالتالي مدى إسهام البيئات الاجتماعية والطبيعية الفقيرة في خلق سلوكات عدوانية من قبيل التلصص وقطع الطرق وفي اختلال الأمن عموما، وأمن الطرق بوجه خاص، إلى جانب عوامل أخرى يتداخل فيها الطبيعي بالبشري، وبالمقابل كيف اعتُبرت الحرابة ناقوص خطر كان يُقرع في وجه المجتمع منبّها إلى الخلل الكبير الذي كانت تعرفه البنية الاقتصادية والاجتماعية في بلاد المغرب الإسلامي العصر الوسيط، وكيف شكلت الحرابة أيضا وجها من أوجه المعارضة لتلك النظم المسؤولة عن ذاك الاختلال.

تقديم

2- مشكلة البحث وأسئلتها وفرضياتها

ويمكن تفصيل إشكالية هذا البحث عبر أربعة عناصر أساسية وهي على الشكل التالي:

- الكشف عن عوامل ومظاهر الفقر والهشاشة ببلاد المغرب الاسلامي خلال العصر الوسيط

- الظروف والأسباب الاجتماعية التي تدفع إلى ممارسة اللصوصية وقطع الطرق، وعلى رأسها الفقر وضغط الحاجة.

- الوقوف على أهم عينات ونماذج الحرابة المرتبطة بالفقر والإملاق في بلاد المغرب الاسلامي خلال العصر الوسيط.

وغيرها من التساؤلات الفرعية العديدة التي سوف نطرحها في ثنايا هذا الموضوع

3- أهمية الدراسة

ومن منطلق أن الدراسات السابقة لهذا الموضوع لم تكن شاملة لكل العصر الوسيط ولا لكل مجال المغرب الإسلامي، ولا مخصصة لموضوع اللصوصية وقطع الطرق بشكل منفرد، فمن هنا يستمد هذا البحث أهميته لأننا نرى أن هذا الموضوع لازال في حاجة ماسة إلى دراسة شافية وعميقة تُميط اللثام عن كل الجوانب المسكوت عنها في تاريخ هذه الفئة من المجتمع، وخاصة ما يتعلق بعوامل الحرابة ودواعيها ومن جملة دور الفقر والحاجة في تفريخ اللصوص وقطاع الطرق، ولسنا هنا ندعي حيازة قصب السبق في تناول هذا الموضوع، وأننا سنأتي بما لم تستطعه الأوائل، ولكن قد نساهم إلى جانب كل من غامر باقتحام هذا المجال من البحث، لعلنا بذلك نساهم بإضافة لبنة جديدة في إعادة بناء تاريخنا الاجتماعي بشكل علمي وصحيح، عملا بمقولة أن: "منطق التاريخ يفيد بأن الشعوب تتعلم من صفحات تاريخها السوداء، أكثر من صفحاته الناصعة،"[6] ومن هنا أيضا يستمد هذا البحث أهميته ذلك أنه اختار ركوب الصعب، واقتحام المجهول ليتلمس الحقيقة قدر المستطاع، سبيلنا في ذلك التنقيب بين ثنايا المصادر لعلها تجود علينا بما يشفي الغليل للإجابة عن إشكالية هذا البحث.

4- التأطير الاصطلاحي والمفاهيمي

جاء في إحدى رسائل الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي، أمر إلى ولاته "بالكشف عن أهل التلصص والحرابة"[7] ،فإذا كان لفظ الحرابة يطلق على قطع الطريق كما سنرى في تعريفه، فإنه بالإضافة إلى هذا اللفظ ستصادفنا في الشهادات التاريخية التي سنوردها في هذا البحث جملة من الأوضاع والأفعال التي تحمل نفس الدلالة مثل؛ الفساد والسرقة والفتك والفسق والعيث والأوباش والصعاليك وغيرها كثير، لكننا سنحاول التعريف بأهمها وذلك على الشكل التالي:

لا بد أن الذين مارسوا اللصوصية وقطع الطرق بشكل أو بآخر لم تكن أعمالهم مدفوعة فقط بِغِلّ طبقي أو رغبة في التغيير أو انتهازا لفرصة ضعف الدولة واختلال قوتها، وإنما وُجد بالمغرب الإسلامي على مدار الفترة قيد الدراسة شرائح واسعة من المجتمع من لازمها الفقر المدقع والخصاصة المعدمة، وشأن الإنسان في ذلك شأن المجال إذ لم تكن كل الأراضي المغاربية على قدر من الرخاء والغنى الطبيعي بل هناك من المناطق التي تدخل في حكم الأراضي المُجاحة على الدوام، ومعلوم أن الواقع الاجتماعي والظروف الطبيعية لهما الأثر البالغ في تحديد سلوكات البشر، وقد أكد جاك بيرك في فترة لاحقة عن تاريخ هذا البحث أن هناك تناغما كبيرا بين البنية الاجتماعية للقبيلة ووسطها الإيكولوجي، ذلك أن الأرض بمورفولوجيتها وطبيعة خيراتها ومواردها هي التي تتحكم في طبيعة العلاقات الاجتماعية لساكنيها[1]، ومن هذا المنطلق نتساءل عن دور البيئات الاجتماعية والطبيعية الفقيرة في خلق سلوكات عدوانية من قبيل التلصص وقطع الطرق؟

1- الإطار النظري والدراسات السابقة للموضوع

نظرا لأهمية المسألة الأمنية في حياة المجتمع وعلى مر العصور فقد تناولت موضوع اللصوصية وقطع الطرق سواء في الفترة الوسيطية أو ما بعدها مجموعة من الدراسات الحديثة، والتي أفادتنا كثيرا سواء على مستوى المنهج أو على مستوى المضمون، وإن كان جل تلك الدراسات لم يتطرق لموضوع الفقر ودوره في إبراز ظاهرة اللصوصية وقطع الطرق، إذ غالبا ما تتناول جانبا دقيقا أو فترة زمنية محددة أو رقعة جغرافية ضيقة أثناء دراستها لهذا الموضوع، ومن الأمثلة على ذلك نذكر؛ كتاب "الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين،"[2] والذي حصر فيه صاحبه فترة البحث في العصر المرابطي، ولم يخصص للصوص سوى حيزا يسيرا في هذه الدراسة، لأنها تشمل بالدراسة جل الفئات الاجتماعية لتلك الفترة، كما تحدث أحمد المحمودي ضمن "عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي"[3] عن اللصوص وقطاع الطرق، إلا أن هذه الفئة لم تنل حظها الكافي في الدراسة التي تناولت كل شرائح العامة، كما قصرها على زمان محدد وهو العصر الموحدي ومجال محدد وهو المغرب الأقصى، وبنفس الطريقة يعرج محمد فتحة على موضوع اللصوصية في بحثه[4] والذي وإن كان يشمل بالدراسة كل بلاد الغرب الإسلامي إلا أنه حددها زمنيا في ثلاثة قرون (ق: 6 هـ /9 هـ) من العصر الوسيط، ثم أن الحديث عن اللصوص في هذه الدراسة يقتصر على جانب العقوبات والتعازير التي سُلطت على المجتمع في تلك الفترة، ومن ضمن فئات المجتمع العريضة نجد فئة اللصوص، وإذا كان عبد الأحد السبتي[5] قد أفرد دراسة خاصة باللصوص وقطاع الطرق، فإنها تتحدث عن مغرب ما قبل الاستعمار (ق: 19م) غير أنه في بنائه للموضوع ينطلق أحيانا من فترات وسيطية، كما يعقد مقارنات بين فترات تختلف زمنيا إلا أنها تتشابه فيها أحداث اللصوصية وأمن الطرق.

---

[1]- Berque.J, **Les structures sociales du Haut-Atlas**, P.U.F, Paris, 1925, p. 255.

[2]– إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1998م، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، السنة الجامعية، 1990 - 1991م.

[3]– أحمد المحمودي، عامة المغرب، م س، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، السنة الجامعية، 1999 - 2000م.

[4]– محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9 هـ / 12 - 15م، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، 1999م. أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، السنة الجامعية، 1995م.

[5]– عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار، دار توبقال للنشر، ط 1، 2009م، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 2005م.

[6]- مصطفى نشاط، جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات الزمن، 2006م، ص. 7.

[7]- أحمد عزاوي، رسائل موحدية مجموعة جديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 5199، ص.63.

أو أشهر السلاح واستعمل القوة والعنف في الدود عما في يديه من مسروقات، فهو غاصب، محارب.

ـ الفسق: في لسان العرب هو "العصيان والخروج عن طريق الحق، لأن الفسوق معناه الخروج، وقيل: أصل الفسق الخروج عن الاستقامة والجور، وبه يسمى العاصي فاسق، وإنما سميت هذه الحيوانات فواسق على الاستعارة لخبثهن، وقيل: خروجهن عن الحرمة في الحل والحرام أي لا حرمة لهن بحال"[16] ،ومن هنا كان تسمية اللصوص وقطاع الطرق في بعض الروايات التاريخية بالفسّاق، لأنهم في نظر السلطة والمجتمع مجرد عصاة خارجين عن الطريق الحق، لا حرمة لهم أو عندهم.

ـ التصعلك: هي صفة توحي بمعنى الحاجة والفقر لأن "الصعلوك" عند ابن منظور هو :"الفقير الذي لا مال له، وزاد الأزهري ولا اعتماد، وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك، وصعاليك العرب ذؤبانهم، وكان عروة بن الورد يسمى: عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حضيرة فيرزقهم مما يغنمه"[17]، مما يؤشر على حياة التضامن والتآزر التي كانت تطبع مجتمع الصعاليك، لأنهم "وأمام تشدد المجتمع الإسلامي في قمع مظاهر الانحراف والفساد، اضطروا إلى تشكيل مجتمع في مجاهل الأرض، ينأى بهم عن قبائلهم التي نبذتهم وخلعتهم"[18] ،ومن هنا كان لفظ الصعاليك عند العرب يدل أيضا على بعض معاني "الأخلاق كالكرم والمروءة والشجاعة"، وهو ما لا يمكن توفره في اللص، الذي يوحي معناه على "الخبث والدهاء والتحايل"[19].

ـ الفتك: هو "ركوب ما هَمّ من الأمور ودعت إليه النفس، ويقال رجل فاتك: أي جرّيئ، وفتك بالرجل فتكا إذا انتهز منه غِرّة فقتله أو جرحه، وقيل هو القتل أو الجرح مجاهرة، ثم جعلوا كل من هجم على الأمور العظام فاتكا"[20].

ـ أوباش: الأوباش في اللغة "جمع مقلوب من البوش، وهم نفر من الناس فيه أجناس غير متجانسة من الرجال"[21] ،أما في الاصطلاح فقد "أطلق هذا اللفظ في العصور الإسلامية المتأخرة على الجماعات المثيرة للشغب، والتي كانت تقوم بين الحين والآخر بأعمال النهب والإعتداء على الآمنين، وقطع الطرق على التجار والوافدين"[22]، ولهذا نجد لفظ الأوباش في المصادر التاريخية عادة مقرونا بفعل السرقة أو الفاعل اللص كقول ابن عذاري: "الصوصا وأوباشا، وكلابا هراشا"[23].

إذن يلاحظ أن فعل اللصوصية وقطع الطرق، يرادفه بشكل أساسي لفظ الحرابة[24] الذي يحمل في طياته أربعة عناصر وهي: "شهر السلاح، وقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل النفوس"، وهي الشروط التي يتوجب توفرها في

ـ اللصوصية: اللَّصَصُ في اللغة هو "تقارب ما بين الأضراس حتى لا ترى بينها خللا"، وقد يعني أيضا "تقارب القائمتين والفخذين"[8] ،وبالتالي يصبح المعنى اللغوي لكلمة اللصوصية هو التقارب والالتصاق، الغرض منه هو الاختفاء، وهو فعل يشبه فعل "السارق الذي يسرق ممتلكات الآخرين، فيحاول إخفاء ما يقوم به، كأنه يقارب ما بين كتفيه ومنكبيه أو يلتصق بالشيء"[9]، ولهذا اصطلح لفظ اللص على السارق خلسة، فعند ابن منظور اللص هو: "السارق وهو معروف؛ ومصدره اللصوصية، والتلصص ولص بيّن اللصوصية، وهو يتلصص، وجمعها لصاص ولصوص، والأنثى لصة والجمع لصات ولصائص، وأرض مُلِصّة: ذات لصوص."[10]

ـ قطع الطرق: نجد في المصادر التاريخية ما يحيل على معنى قطع الطريق، مثل قول ابن خلدون أن "معاش أهل الانتجاع والإظعان، في نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع السابلة"[11] ،ويفسر الماوردي قطع السابلة قائلا: "إذا اجتمعت طائفة من أهل الفساد على شهر السلاح وقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل النفوس، ومنع السابلة، فهم المحاربون الذين قال الله تعالى فيهم: "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض" (سورة المائدة)[12]، واسم الفاعل منها: المحارب وهو كل "من قاتل على أخذ المال، بأي نوع من أنواع القتال، فهو المحارب، هو المجاهر بالقتال"[13].

وهكذا تصبح الحرابة مرادفة لقطع الطريق، وبهذا المعنى ترد في المصادر التاريخية؛[14] أي أن فعل الحرابة يقتضي شهر السلاح وقطع الطرق، ليس بهدف سفك الدماء وإنما قصد أخذ المال، لكن قد يصاحبها أحيانا إزهاق للأرواح، في صفوف الجانبين.

ـ السرقة: يلاحظ من خلال تعاريف اللصوصية، وقطع الطرق، والحرابة، أن هذه الأفعال لا تعدو أن تكون مجرد حلقات تمهيدية لتحقيق هدف السرقة وأخذ المال؛ أي أن اللص يختفي ويتلصص من أجل الوصول إلى أخذ المال، وكذلك المحارب؛ فقطع الطريق عنده ليس سوى وسيلة لتحقيق غاية السرقة، وبالتالي فاللص والمحارب كلاهما سارق، و"السارق عند العرب هو؛ من جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من ظاهر فهو مختلس ومستلب ومنتهب، ومحترس، فإن منع مما في يديه فهو غاصب"[15] ،إذن فالسارق يشترط فيه التخفي والتستر وأخذ مال الغير، وأن يكون هذا المال مخبأ في حرز، أما المختلس، والمنتهب والمستلب، فهو الذي يأخذ مال الغير، ولكن أن يكون هذا المال ظاهرا غير مخبئ، أما إن قاتل من أجل الوصول إلى المسروق

15- ابن منظور ،ن م، المجلد العاشر، ص..340

16- ن م، ص. 308.

17- ابن منظور، ن م، ص. 456- 455.

18– محمد نبيل طريفي، م س، ص. 15.

19– ن م، ن ص.

20- ابن منظور، ن م، م العاشر، ص. . 472

21- الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، دار الرسالة، بيروت، لبنان ط1، 1996. ص.52.

22- ن م، ن ص.

23– ابن عذاري، م س، ص. 187.

24- الحرابة: هي "كل فعل يقصد به أخذ المال على وجه يتعذر معه الاستغاثة عادة، كإشهار السلاح، والخنق، وسقي السيكران (البنج) لأخذ المال"، ابن فرحون، برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، ج 2، خرج أحاديثه وعلق عليه وكتب حواشيه، الشيخ جمال عشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1416هـ/1995م، ص. 203- 204، الشيخ خليل، ابن إسحاق المالكي، مختصر العلامة خليل، صححه وعلق عليه أحمد نصر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأخيرة، 1401هـ/1981م، ص. 290.

8- ابن منظور أبي الفضل جمال الدين، لسان العرب، المجلد السابع، دار صادر، بيروت، ص. 87.

9– محمد نبيل طريفي، م س، ج 1، ص. 14.

10- ابن منظور، م س، ص. 87.

11– ابن خلدون، العبر، ج 6، م س، ص. 176. كما نجد عبارة "يفسدون السابلة ويقطعون على الرفاق ،"ن م، ص. 27.

12- الماوردي أبو الحسن بن محمد، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، 1978، ص. 62.

13– ابن تيمية تقي الدين، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار الكتاب العربي، 1969، ص. 78.

14– عند ابن أبي زرع : "أهل الحرابة والفساد من الورى....يعزون بالتشبه بالذكار"، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط، ط 2، 1420هـ/1999م، ص. 331، عند ابن عبد الملك: "وعات أهل البغي في الأرض وكثر في أقطار المغرب ونواحي مراكش قطع السبيل والمحاربون الساعون في الأرض فسادا"، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح، محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، س. 8، ق. 1، ص. 176.

إذا كان الفقر من الأسباب الرئيسية الممهدة لظهور اللصوص وقطاع الطرق في بلاد المغرب الإسلامي، سواء داخل أسوار المدن أو في هوامشها أو حتى في البوادي البعيدة، فإنه يبقى من الضروري معرفة الأسباب و الظروف التي أوجدت هذا الفقر في بلاد المغارب خلال العصر الوسيط، ولعل الدارس للأحوال الاقتصادية لمجتمع هذه المرحلة سيقف على التفاوت الاجتماعي الصارخ في ملكية وسائل الإنتاج الذي "استفادت منه طبقة الخاصة، بينما أقفلت أبواب الرزق أمام طبقة العامة، وسدت أمامها كل القنوات والطرق الممكنة لتحسين وضعها الاجتماعي"[26]، فكانت اللصوصية وقطع الطرق عند هذه الفئة المهمشة كرد فعل تجاه الفقر والاستغلال الناتج عن "تلك الأشكال من الاضطهاد الاقتصادي والاجتماعي التي تعرضت لها الفئات المستضعفة"[27].

وما كان هذا الوضع الاقتصادي والاجتماعي المختل إلا نتاجاً للنظام الإقطاعي الذي ساد المنطقة والفترة قيد الدراسة وخاصة في عهدي المرابطين والموحدين[28]، وما رافقه من حاجة الحكام إلى المال لإنفاقه على قصورهم لأن "الترف من طبيعة الملك"[29] في بلادنا خلال العصور الوسطى، كما كان المال ضروريا للحكام لتجهيز الجيوش لمجابهة أعدائهم سواء في الداخل أو الخارج، فمثلا لقد قدر عبد الواحد المراكشي ما كلفته حملة الناصر الموحدي على إفريقية فيما بين 601 هـ و 604 هـ "بمائة وعشرين حِمْلاً ذهباً"[30]. وأمام هذه الرغبة في تحصيل المال اتجهت السلطة إلى إثقال كاهل الفئات البئيسة بالضرائب بل و"التدرج في الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار، لتدرج عوائد الدولة في الترف، وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه"[31]، وكانت هذه الزيادات في الضرائب والتضييق في الأرزاق تستهدف خاصة القبائل والأمصار التي أبانت في لحظة ما عن رفضها للعصبية الحاكمة، فكانت الدولة تمعن في إلحاق الأذى بأبناء هذه القبائل الثائرة، فتمنع عنهم الأعطيات وتجبى منهم الأموال الباهظة[32]، وكثيرا ما اعتبرت السلطة المتغلبة الأراضي الخاضعة لها بلاد افتحت عنوة، وبالتالي يدخل أصحابها في حكم المغلوب[33] والأموال التي تجبى منهم بمثابة جزية أو ضريبة حرب[34]، ويزداد هذا التضييق المالي الممارس على العامة كلما نقصت مداخيل بيت المال خلال الطوارئ الطبيعية كالقحوط والأوبئة والمجاعات، أو البشرية كالاضطرابات السياسية والفتن، التي عادة ما "تزداد في أواخر الدولة زيادة بالغة"[35].

وإذا أضفنا إلى هذا الاختلال الاقتصادي والاجتماعي الناتج عن السياسة الجبائية الجشعة وقسوة الدولة ورجالاتها في تحصيل الضرائب وانحرافاتهم، قساوة الظروف الطبيعية كالجفاف وقحط المراعي وزحف الجراد، الذي عانت منه بعض القبائل المغربية وهي تكابد نوائب الزمن قصد الحفاظ على البقاء، لعلمنا أن بعض المجموعات من اللصوص ظهرت من أبنـاء هذه الـقبـائـل لتعـارض فساد هذه الأوضـاع، و تسعى إلى تغيير واقعها، فكانت السرقة هي أقرب الطرق لتحقيق ذلك[36] وخاصة إذا علم هؤلاء اللصوص الجياع أن من شروط تطبيق حد السرقة عند الفقهاء؛ "ألا يكون المحارب[25] قاطع الطريق حتى تقام عليه حدود المحاربين الساعين في الأرض فسادا، وبالتالي فهي كلمة جامعة لكل مفاهيم ومصطلحات اللصوصية التي سترد في هذا البحث، كما أنها كلمة وسيطية شاع استعمالها في ذلك العصر، حيث تتضمنها مختلف التصانيف والمؤلفات، سواء كانت كتب فقه أو أقضية ونوازل، أو كتب الرحلات أو المناقب أو حتى كتب التاريخ العام، مما يؤشر على مدى القلق الذي كانت تولده آفة الحرابة في صفوف المجتمع والسلطة، وهذا ما يفسر كيفية تعاطي السلطة والمجتمع مع هذه الظاهرة، من خلال اجتهادهما في ابتكار آليات الاحتراز والحماية من الحرابة، وكذا الإبداع في وسائل الردع والعقاب تجاه المحاربين واللصوص.

5- المنهجية المعتمدة في التعاطي مع موضوع البحث.

وقصد الإجابة عن الإشكالية والفرضيات المسطرة سلفا، فقد اعتمدنا في هذا البحث المنهجية العلمية القائمة على استقراء النصوص ومساءلة مضامينها ومحاولة استنباط ما بين سطورها، لتفسير جملة من الأحداث والسلوكات والمواقف التي تخدم الموضوع، كما ننهج أحيانا الأسلوب الاستدلالي وذلك ببسط فكرة أو قضية معينة ثم نحاول إثباتها والتدليل على صحتها من خلال قياسها على ما ورد في النصوص والشهادات المصدرية، كما نستعمل المنهج الوصفي أحيانا الذي يمكننا من تتبع ووصف منحى تطور ظاهرة اللصوصية والخوف في الطرقات في المجال (المغرب الإسلامي) والزمان (العصر الوسيط).

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال إنجاز هذا العمل واجهتنا جملة من الصعوبات، وعلى رأسها ندرة المادة المصدرية التي تتناول ـ صراحة ـ موضوع اللصوصية وقطع الطرق في المغرب الوسيط، الشيء الذي صعّب علينا الإجابة عن بعض الإشكالات، كما أن المصادر تخلط بين الثوار والخارجين عن السلطة الحاكمة واللصوص والمحاربين، بل تضع الكل في سلة واحدة تحت يافطة أهل الفساد والأوباش وسفلة الأسواق وأهل الدعارة والحرابة، وما يطرحه هذا الخلط من صعوبة فرز المناسب من غيره في هذه المادة.

وتطرح ندرة المعلومات وعدم موضوعيتها في كتب التاريخ العام إشكالية كبرى أمام الباحث في مثل هذه المواضيع، ويزداد الأمر تعقيدا والجدل حدة عندما يتعلق الأمر بدراسة تاريخية واجتماعية لفئة محددة ضمن هذه الفئات المهمشة، كما هو الشأن بالنسبة لهذا العمل الذي سنركز من خلاله على فئة اللصوص وقطاع الطرق في بلاد المغرب الإسلامي الوسيط، ولهذا وقصد تخطي هذه العوائق كان لزاما علينا توسيع دائرة المصادر المعتمدة لتشمل مختلف الكتابات والتصانيف والحقول المعرفية التي عرفها العصر الوسيط.

6- نتائج البحث

أ – من عوامل الفقر والهشاشة ببلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط

[25] -المحارب: هو "القاطع للطريق، المخيف للسبيل، الشاهر للسلاح لطلب المال، فإن أعطي وإلا قاتل عليه، كان في الحضر أو خارج المصر"، ابن فرحون، ن م، ج 2، ص. 204، الشيخ خليل، ن م، ص. 290.

[26]- بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1993م، ص. ص. 111.

[27]- طريفي، محمد نبيل، اللصوص في العصر الجاهلي والإسلامي ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط 1، 1425 هـ/ 2004م، ص. 14 .

[28]- إسماعيل محمود، المهمشون في التاريخ الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، المكتبة الوطنية للمملكة الوطنية، 2004، ص. 150.

[29]- ابن خلدون، عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط 1، 1413 هـ/ 1993م، ص. 132.

[30]- المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، طبع في مدينة ليدن المحروسة، بمطبع بريل، نشر، ر. دوزي، 1881م، ص 318.

[31]- ابن خلدون، المقدمة، م س، ص. 218.

[32]- محمد طريفي، م س، ج 1، ص.17.

[33]- ففي عهد الموحدين يقول صاحب الروض الهتون: "تملك الموحدون البلاد والأموال، وصار الناس عمارا في أملاكهم يؤخذ منهم نصف الفواكه الصيفية وثلثا غلة الزيتون، فكان الناس من ذلك في جهد عظيم ومحنة شديدة لا يتجرأ أحدهم أن يقطف من ملكه حبة واحدة"، وأمام هذا الوضع اضطر بعض أصحاب الأراضي إلى هجرتها "والفرار عن الأراضي وتركها حتى تبورت" ابن غازي المكناسي، م س، ص. 10.

[34]- Ben Ali. D, **Le Maroc précapitaliste,** (Formation économique et Sociale) Société marocaine des éditeurs réunis, Rabat, 1983, p. 157.

[35]- ابن خلدون، المقدمة، م س، ص. 219.

[36]- طريفي، م س، ج 1، ص. 17.

للسارق حق في مال المسروق منه، ونحن نرى كثيرا من السراق جياعا، بحيث تجب كفايتهم على الناس، والمسروق منه أحد من يجب عليه، فلا يجوز القطع مع ذلك، لما للسارق من حق التوصل إلى أخذ ما يستحقه"[37] من طعام يراه فائضا عند غيره بينما هو في أمس الحاجة إليه

ب- حرابة وليدة الفقر وضغط الحاجة

يعد الفقر والحاجة الشديدة إلى ضروريات الحياة، من مأكل وملبس وسكن، من أشد قواصم الظهر وطأة على نفسية الإنسان وجسده، ولهذا عُدّ الفقر من بين أهم العوامل الفاعلة في التاريخ، نظرا لما قد يترتب عنه من إخلال بالاستقرار الاجتماعي، ومن صراع مرير بين طبقات الأغنياء المالكين لوسائل الإنتاج وبين أفراد الطبقات الفقيرة المحرومين من تلك الوسائل[38]، لأن الإنسان ومن أجل بقائه وبقاء عشيرته ومن يعول، لا يعدم وسيلة للحصول على الطعام بمختلف الطرق، حتى وإن جرّب أخس الطرق وأحقرها، وأشدها مرارة وأفظعها على نفسه، مثل الدعارة[39] أو التسول[40] أو بيع أبنائه من أجل الطعام، بالإضافة إلى اللصوصية لمن استطاع إليها سبيلا[41]، ذلك أن القلة من الفقراء هي التي اقتحمت درب المغامرة ولجأت إلى العنف من أجل تحصيل الرزق.

ويهمنا هنا الحديث عن هذه الفئة القليلة من الفقراء التي اختارت لنفسها ركوب الصعب، ومبارزة الأغنياء بالعداء في الأسواق والبساتين والمراعي وعلى الطرقات الكبرى، لعلها تعيد لهذا المجتمع المختل بعض التوازن[42]، ولعلها أيضا من خلال أعمال اللصوصية وقطع الطرق، ومساهمتها في الاضطرابات والفتن والتمردات والعصيان، أن تثير انتباه الآخرين وفي مقدمتهم الأغنياء والحكام إلى الوضعية المزرية التي تعيشها الفئات الفقيرة والمهمشة، كوسيلة من وسائل انتقاد ومعارضة الأنظمة السياسية والاقتصادية القائمة[43]، وما يزكي هذا الطرح هو تمجيد بعض اللصوص وقطاع الطرق لأفعالهم العنيفة تجاه الأغنياء، وبالمقابل ذمّهم كل متقاعس قعد عن السرقة ينتظر أن يعيله غيره من السراق وفي ذلك قالوا:

"وإنّ أبـا الكرشاءِ ليس بسارق \\// ولـكن متى يسرق القوم يأكـل"**[44]**

وفي هذا الصدد يُحكى أن الحجاج بن يوسف عندما أمسك بأحد اللصوص وهو جُحْدُر بن مالك الحنفي، و"كان لصا فاتكا شجاعا شاعرا، ثم سأله قائلا: ما حملك على ما بلغني منك؟ فقال الـلص: جرأة الجنان، وجفوة السلطان، وكلب الزمان[45]، والعجز عن مكافأة الإخوان"[46]، أي إذا تكالب جور السلطان و جور الزمان على إنسان تميز بالجرأة والشجاعة، فما كان ليجلس مكتوف الأيدي ينتظر الموت جوعا أو يسأل الناس حاجته، بل سيبادر إلى إعلان الثورة والتمرد على الجبن والاستكانة في سبيل حفظ ماء وجهه من الذل والإهانة، مبرهنا لنفسه وللقبيلة على قدرته على تحصيل الرزق بكده وتعبه[47]، وقد عبر بعض الشعراء اللصوص عن هذا الموقف صراحة ومنها قول أحدهم:

"وإني لأستحي من الله أن أُرى \\// أجرجر حبلي ليس فيه بعيرُ

وأن أسـأل المرء الدنيء بعيره \\// وأجمال ربي في البلاد كثيرُ"**[48]**

كما استند هؤلاء اللصوص الفقراء بالإضافة إلى فاقتهم وجرأتهم على سند شرعي استنه الصحابي والخليفة عمر بن الخطاب، وهو الجريئ في إيجاد الحلول لأزمات الأمة حيث "لا نعرف نظيرا لعمر كرجل دين ورجل دولة على مدى التاريخ الإسلامي كله" في الجرأة على النص القرآني، ليس "تفسيرا أو تعديلا فقط، بل امتد إلى التعطيل والمخالفة"[49]، فهو الذي امتنع عن "تطبيق حدود السرقة على اللصوص المحتاجين، كما أوقف تنفيذها عام المجاعة"[50]، وغيرُ عمر كثير ممن دعوا إلى مواجهة الجوع بالسرقة، وعلى رأسهم صحابي خبير بقطع الطرق وهو أبو ذر الغفاري القائل: "عجبت لمن لم يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه"[51]، وفي ذلك دعوة صريحة إلى نهب الأغنياء وسلبهم قصد سد خُلّة الجوع، ومحاربة التباين الطبقي الفاحش وخاصة في أوقات المسغبة، ولو باستخدام العنف إذا اقتضى الأمر ذلك[52]، وإذا كانت هذه الروايات تتعلق بلصوص المشرق الإسلامي فإن سيرورة التاريخ الإسلامي تؤكد على أن تاريخ الغرب الإسلامي شهد نفس الظواهر التي وقعت

37- السبكي، تقي الدين علي بن عبد الكافي، فتاوى السبكي، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط سنة 2004م، ص. 302.

38- استيتو محمد، الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و17، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، ط 1، سنة 2004م. ص. 25.

39-الوزان الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا ج 1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 2، 1983م. ص. 215، التيفاشي، شهاب الدين أحمد، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، تح، جمال جمعة، رياض الدين للكتب والنشر، لندن- قبرص، ط 1، سنة 1992م، ص. 103- 107.

40- يقول أحد الشعراء يصور مرارة التسول ووقعه المخزي على نفسيته قائلا: "ولم أر في الخطوب أشد وقعا //\\وأمضى من معاداة الرجال

وذقت مرارة الأشيـاء طـرا //\\ فمـــا شيء أمرّ من السـؤال"، الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، تح محمد خير طعمة الحلبي، دار المعرفة، بيروت، ط 5، 1429هـ/2008م. ص.235.

41- اعتبرت اللصوصية شرفا عند بعض الفقراء، وتعرضوا بالذم لكل فقير قعد عن السرقة من أجل إطعام نفسه وأهله، أو لجأ إلى غيرها مثل التسول واستجداء الأغنياء من الناس، وفي ذلك قالوا:

"ومن يفتقر منا يعش بحسامه //\\ومن يفتقر من سائر الناس يسأل"، الأبشيهي، ن م، ص. 319.

42- بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص. 111، 127- 128.

43- BRAUDEL, F**, La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philipe II**, 2t, Armand Colin, Paris, 1970. pp. 84- 85.

44- الأبشيهي، م س، ص. 301

45- مروّة، محمد رضا، الصعاليك في العصر الأموي أخبارهم وأشعارهم، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 1، 1411هـ/1990م. ص. 43 – 44.

46 -طريفي، محمد نبيل، ديوان اللصوص في العصر الجاهلي والإسلامي ج 1، م س، ص.22. غير أن هناك اختلافا بين الروايتين، حيث نجد في ديوان اللصوص أن الحوار بين " الشاعر الفاتك مالك بن الريب والوالي سعيد بن عثمان بن عفان، (والي معاوية على خرسان) بينما مالك في نفرة من أصحابه، فقال له الوالي: ويحك يا مالك، ما الذي يدعوك إلى ما بلغني عنك من العداء وقطع الطريق؟ قال: أصلح الله الأمير، العجز عن مكافأة الإخوان."

47- نبيل طريفي، ن م، ج1، ص. 21.

48- الأبشيهي، م س، ص. 301، وقال آخر: "دعني أنهب الأموال حتى \\// أعفّ الأكرمين عن اللئام" نفسه، ص. 236.

49- فرج فودة، الحقيقة الغائبة دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات عيون المقالات، ط 2، 1989م، ص. 45

50- فرج فودة ، ن م، ص. 48 .

51- حميش سالم، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1998م، ص. 9.

52- أدونيس، الثابت والمتحول في الإبداع والاتباع عند العرب، ج 1، دار الساقي، بيروت، ط 8، سنة 2002م، ص. 232- 233.

يدفعهم أحيانا إلى "رهن أولادهم عند الصقليين مقابل القمح الذي يأخذونه منهم"، وإن كان غالبا ما يتحول هؤلاء الأطفال إلى أرقاء عند الصقليين "بسبب عجز آبائهم عن الوفاء بالدين عند الأجل المحدد"[64]، ولهذا لا نستغرب إذا أجمعت المصادر على وصف هؤلاء العرب "بأقبح الفاتكين على وجه الأرض"[65]، ومنهم "شرذمة من سليم لصوصا وأوبشا وكلابا هراشا"[66]، فهم لا يتورعون عن سرقة أي غريب مربهم "وتجريده من جميع ما عنده ثم بيعه للصقليين، كما يجردون الحجاج المساكين وأبناء السبيل من ثيابهم"[67]، بل يدفعون هؤلاء المسافرين إلى التقيئ ثم يبحثون "عما قد يكون في القيئ من نقود لأنهم يتهمون المسافرين ببلع نقودهم حتى لا يعثر عليها معهم"[68]، لكن إذا بدت تصرفات هؤلاء اللصوص بشعة إلى هذا الحد، فإنها أهون عندهم من أن يرهن الرجل منهم أولاده عند النصارى مقابل يسير طعام، مما يؤكد أهمية هذا الأخير في حياة إنسان العصر الوسيط المغربي، الذي قد يسلك جميع الطرق من أجل توفيره.

- **في الحواضر ومراكز الدولة**

يذكر القادري بوتشيش أن معظم من لم يسعفه الحظ في إيجاد حرفة داخل أسوار مراكش من العوام والمهمشين قد لجأ إلى الغضب واللصوصية[69] خلال القرن السادس الهجري، وليست مراكش سوى عينة من حواضر الغرب الإسلامي التي كان يتحكم فيها نفس النظام السياسي والاقتصادي السائد، حيث عرفت كل هذه المدن انتشار هذه الفئة من العاطلين الذين سمتهم كتب النوازل "بأهل الفساد والشر وشرب الخمر والعياثة"[70]، الذين كانوا يعيثون في أسواق وسكك المدن ويفسدون على الناس أعراسهم وولائمهم[71]، فكانوا غالبا ما ينفذون أعمالهم الإجرامية ليلا وهو ما شاهده ابن الخطيب في سلا من تسلل اللصوص ليلا لانتهاز فرصتها[72]، وصدحت به أصوات المستفتين المتضررين من بالمشرق، وذلك لوجود قواسم مشتركة أساسية على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين المشرق والمغرب[53].

ولتأكيد هذه الفرضية وخاصة دور الفقر والجوع في إفراز ظاهرة اللصوصية وقطع الطرق في بلاد المغرب الإسلامي، يكفي أن نقوم بجرد أهم المسروقات التي ضُبطت عند بعض اللصوص كما أوردتها بعض المصادر لنجدها غالبا عبارة إما عن مواد تؤكل أو تلبس، مما يؤكد حاجة هؤلاء اللصوص الفقراء لأبسط ضروريات العيش، فمثلا من المسروقات التي صرح بها كتاب التشوف في معرض حديثه عن الأولياء في علاقتهم بالقطاع واللصوص يذكر سرقة الأثواب[54]، والغنم[55]، والعنب[56] ،أو سليخة ثمر[57] ،أو عسل وماشية[58]، كما نقرأ في مصدر آخر عن سرقة كل ما يسمى بالجملة طعاما[59]، أي كل ما يدخل في دائرة المأكولات، وما أكثر الروايات التي تخبر عن سرقة الطعام والثياب[60] وهي المواد الأكثر ضرورية للحياة، وإن الحاجة الملحة إليها هي التي ألجأت جماعة من الفقراء إلى احتراف الإغارة في سبيل النهب والسلب[61] لانتزاع قوتهم اليومي من أيد الأغنياء بالقوة، بعدما تعذرت عليهم سبل الكسب المشروعة.

ج- عينات لحرابة ناجمة عن الفقر ببلاد مغارب العصر الوسيط

- **في البوادي وهوامش الدولة**

من الجماعات البشرية التي عانت الفقر المدقع، نذكر أولئك "الفقراء المنقطعين في بلاد الصحراء، الذين ليس لهم قمح ولا شعير، ويتغذون بقسط يسير من الثمر أو مما يسرقونه"[62]، وفي دائرتهم تدخل أيضا أعراب إفريقية الذين عاشوا "عيشة فقيرة، لأن البلاد التي يسكنونها قاحلة، وعرة، تتميز بقلة المرعى، وانعدام بقعة صالحة للزراعة"[63]، وإن هذا الإملاق الشديد هو ما كان

---

[63]- الوزان، م س، ج 1، ص. 66.

[64]- ن م، ن ص.

[65]- من هذه المصادر: مقدمة ابن خلدون، م س، ص. 117-119، ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تح محمد إبراهيم الكتاني ـ محمد بن تاويت ـ محمد زنيبر ـ عبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 1، 1406هـ/ 1985م، ص،187، 242- 246، التشوف، م س، ص. 409، المقصد الشريف، م س، ص. 61 - 75، ابن عسكر محمد، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تح، محمد حجي دار المغرب، الرباط، 1976، ص. 71- 72. العبدري الحيحي، أبو عبد الله محمد بن محمد، الرحلة المغربية، تح، محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، الرباط، 1968م، ص. 61 ، 75، 96 ، 278، وصف إفريقيا، ج 1، م س، ص. 65 - 67 - 68، كاربخال، إفريقيا، ج 3، م س، ص. 137- 146- 148- 152- 153- 158.

[66]- ابن عذاري، م س، ص.187.

[67]- الحسن الوزان، م س، ج 1، ص. 65.

[68]- ن م، ج 1، ص. 112.

[69]- بوتشيش، المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2014م، ص. 236.

[70]- الونشريسي، م س، ج 6، ص. 412، ابن فرحون، برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، ج 2، خرج أحاديثه وعلق عليه وكتب حواشيه، الشيخ جمال عشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1416هـ/1995م، ص.185.

[71]- ابن عبدون، م س، ص. 54.

[72]- ابن الخطيب، مشاهدات، م س، ص. 70.

[53]- إسماعيل محمود، المهمشون في التاريخ الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، المكتبة الوطنية للمملكة الوطنية، 2004، ص. 148.

[54]- ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التاديلي، التشوف إلى رجال التصوف، تح أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 2، 1997م، ص. 309، 393، 383، البادسي عبد الحق، المقصد الشريف والنزع اللطيف، في التعريف بصلحاء الريف، تح سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1982، ص. 96.

[55]- ابن الزيات، م س، ص. 393.

[56]- ن م، ص. 309 - 358.

[57]- ن م، ص. 418.

[58]- ن م، ص. 409.

[59]- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط، ط 2، 1420 هـ/ 1999م، ص. 144.

[60]- حول سرقة الغلات الفلاحية وحراسة البساتين أنظر أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، ج، 8، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1981م، ص. 226، 283، 341، 421، 428.

وحول سرقة المواشي، أنظر المعيار، ج 9، ص. 542- 558.

حول سرقة القمح والدقيق، أنظر السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد، رسالة في آداب الحسبة، نشر ليفي بروفنسال، مكتبة إرنيست، باريس، المؤسسة المغربية للدراسات العليا، ص. 16، 25- 26، المعيار، ج 8، ص. 322.

[61]- رضا مروّة، م س، ص. 4 .

[62]- مارمول كاربخال، إفريقيا، ج 3، تر، محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، الجمعية المغربية للترجمة والنشر، مكتبة المعارف، الرباط، 1409 - 1408هـ / 1989 - 1988م، ص. 161.

- **في بعض القرى والمداشر**

كما في المدن كانت قرى بلاد المغرب خلال العصر الوسيط تعج بالمفلسين والمتسكعين الذين لا دخل لهم ولا حرفة، وكذا أصحاب المهن الوضيعة من العوام المهمشين[90]، الذين كان وضعهم المزري يزداد تفاقما كلما نزلت على رؤوسهم قارعة طبيعية أو بشرية، مما كان يضطرهم إلى تجريب كل الوسائل، لمواجهة واقعهم الصعب والمرير[91]، فتارة كانت هذه المواجهة تظهر في إفرازات ذهنية وممارسات استسلامية تواكلية همها الانسحاب من واقع المعاناة بالفرار أحيانا والزهد أحيانا أخرى، وتارة كانت المواجهة تتخذ سلوكات عدوانية كالسطو والنهب والتعدي[92] الموجه إلى كل ما يؤكل أو يلبس من مواد تعتبر ضرورية لضمان البقاء، وهذا ما يفسر كثرة الأسئلة الموجهة من طرف أهل القرى إلى الفقهاء حول طرق تأمين وحرز زروعهم وضروعهم من هؤلاء اللصوص[93].

إلا أن كل الطرق وأشكال الاحتراز لم تكن تحول دون حصول هؤلاء الفقراء على طعامهم عن طريق الخطف والنهب أحيانا، أو باستعمال الحيل أحيانا أخرى، كأنْ يجلس النفر من هؤلاء البطّالين في ظل شجرة، بجوار الطريق لانتهاز الفرصة فيمن يقدرون على سرقته، خاصة إذا كان ضعيف الحماية أو غريبا عن البلد[94]، كما قد يتواطأ بعض الرعاة الفقراء مع اللصوص لسرقة أحد رؤوس الماشية[95] خاصة إذا كانت العقوبة خفيفة على الراعي إذا نقصت غنمه، كأن "يحلف أنه ما باع [منها] وما أكل ولا دلس ولا فرط"[96]، وقد عبر الناس في أمثالهم عن عدم جدوى اليمين إذا أنكر السارق، بقولهم: "لو عطي للسارق يمين بمصحف، كُنْ يْمشي به تحتْ"[97]، ومن حيلهم أيضا في سرقة الطعام ما كان يقترفه عمال الأرحي من اختلاس في القمح أو الدقيق الوارد عليهم بغرض الطحن[98]، حتى اشتهرت بعض الأرحي بين الناس بالاختلاس، وأن "الرحوي الذي فيها مشهور السرقة"[99].

كما كان إقدامهم أحيانا على استخدام العنف المفضي إلى القتل يفسر مدى التوتر النفسي الذي كانوا يعانون منه من شدة الحاجة والفقر وحتى الخوف[100]، خاصة وأن معظم أصحاب هذه السرقات الفردية كانوا محليين، حوادث السرقة والتدمية في مدن كثيرة والتي تقترف تحت جنح الظلام[73]، كما تحدثت كتب المناقب عن هؤلاء اللصوص الذين كانوا يتسللون إلى الدور والدكاكين يفتشونها ويسلبون ما فيها[74]، ولأجلهم نصب حرس الليل يطوفون أزقة المدن المغربية[75].

ويدخل ضمن هذه الفئة من اللصوص، الفقراء المعدمون أولئك الذين شردتهم المجاعات ونكبتهم الجوائح وغوائل الزمن، فتفرقوا في اتجاهات مختلفة ومن ضمنها أبواب المدن الكبرى ثم لم يظفروا بموطئ قدم داخل أسوارها وسدت في وجوههم أبوابها، فتحولوا إلى عاطلين ومتسكعين منبوذين في هوامش تلك المدن وغاباتها المجاورة وأرباضها الحقيرة، حيث خلطوا هناك بين جميع أنواع الجريمة والآفات الاجتماعية كاللصوصية والقمار والمخدرات والدعارة[76]، وهكذا تنضاف فئة من اللصوص وقطاع الطرق الفقراء في هوامش المدن بل وحتى داخل أسوارها بتزامن مع ظروف الضيق والحاجة التي تخلقها الجوائح والقحوط[77]، وهو ما يفسر إقدام السلطة على إغلاق أبواب المدن وخاصة إبان المجاعات في وجه هؤلاء البائسين درءا لخطرهم على أمنها وأمن ساكنيها وممتلكاتهم[78]، وكذا مطالبة الفقهاء بمنعهم من الدخول إلى المدينة وأسواقها[79]، وتحذير الناس بعضهم البعض من خطر ما يحدث من سرقات وعيث في الممتلكات من إضرام النار وغيره على يد "طرّاق الليل"[80].

ومن جملة هؤلاء الفقراء المعدمين الذين لم يجدوا بدا من تعاطي اللصوصية بشكل فردي داخل بعض المدن المغربية خلال العصر الوسيط يذكر التيفاشي أصنافا من النساء والغلمان الذين وظفوا المتعة الجنسية لاستدراج ضحاياهم بغرض السرقة، وقد ذكر من فئة الغلمان المُعذّر[81]، والأمرد[82]، والمستعشق[83]، والشاطر[84]، والواحد من هؤلاء بالإضافة إلى انتمائه لطائفة اللواطيين والغلمان "كان لصا أو شاطرا، فيحتال على بعض التجار بالوجارة ويطمعه في نفسه، فإذا دخل معه موضعا خاليا، ولا سيما على شراب، قتله وأخذ ما معه"[85]، أما من صنف النساء فقد ذكر المسافرة[86]، والمظلومة[87]، والشاطرة[88]، والمغنية[89]، وهن نساء زاوجن بين امتهان الدعارة وسرقة زبائنهن إما بمجهود فردي أو بمساعدة أحد اللصوص.

[86]- المسافرة: التي تدعي أنها مسافرة تطلب الإيواء عند أحد العزاب ممن تتوسم فيه بغيتها "حتى تأخذ منه فوق أملها"، ن م، ص. 104- 105.

[87]- المظلومة: التي "تقصد دور العزاب أيضا" تروي لهم قصة كاذبة حول الظلم الذي طالها حتى تحصل منهم على مرادها، ن م، ص. 106- 107.

[88]- ن م، ص. 103- 104 .

[89]- المغنية: تتواطأ مع رجل لص على سرقة من تواعدهم، ن م، ص. 105- 106.

[90]- بوتشيش، المهمشون، م س، ص. 230.

[91]- استيتو، م س، ص. 242.

[92]- بياض، م س، ص. 78.

[93]- الونشريسي، المعيار، ج 8، م س، ص. 227،44، 283، 341- 342، ج 6، ص. 428، التشوف، ص. 257

[94]- ابن الزيات، م س، ص. 321.

[95]- الونشريسي، م س، ج 8، ص. 330- 331.

[96]- ن م، ج 8، ص. 331.

[97]- الزجالي، أبو يحيى عبد الله بن أحمد القرطبي، أمثال العوام في الأندلس، تح، محمد بن شريفة، ق 2، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، د ت، ص. 284، وفي مثله قالوا أيضا: "لس بالله كان يمشي سارق إلا وتحت إبط مصحف" ن م، ص. 175.

[98]- السقطي، م س، ص. 16- 17، 24- 26.

[99]- ن م، ص. 16.

[100]- استيتو، م س، ص. 242.

[73]- ابن فرحون، م س، ج 2، ص. 193، 204- 205، الونشريسي، م س، ج 2، ص. 115، 308- 310، 528.

[74]– ابن الزيات، م س، ص. 78، 413، الباديسي، م س، ص. 148- 149.

[75]- ابن الزيات، ن م، ص. 118- 119، 370، المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، تح، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، ص. 219، الوزان، م س، ج 1، ص. 242، كاربخال، م س، ج 2، ص. 162- 163.

[76]- الوزان، م س، ج 1، ص. 215، كاربخال، م س، ج 2، ص. 160.

[77]- البياض عبد الهادي، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس القرن 6 - 8 الهجري، دار الطليعة بيروت، ط 1، 2008م، ص. 86- 87، 92، استيتو، م س، ص. 89.

[78]- ابن الزيات، م س، ص. 305، 310، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م س، ص. 49 - 51.

[79]- ابن عبدون، م س، ص. 123.

[80]- ابن عذاري، البيان المغرب، ق الموحدين، م س، ص. 266، 258.

[81]- المعذر هو: "الغلام الملتحي"، التيفاشي، م س، ص. 185.

[82]- التيفاشي، ن م، ص. 198.

[83]- المستعشق: يقول التيفاشي عنه "يكون لواطا فقيرا"، ن م، ص. 75.

[84]- الشاطر هو: "الخبيث الفاجر" ومؤنته الشاطرة وهي: "فاجرة تخرج من بيتها حافية، وتستعمل سرعة السير، فإذا أبصرت من تتوسم فيه حصول بغيتها حادثته واستمالته بقصة كاذبة ... حتى يبذل لها فوق ما تستحقه"، ن م، ص. 103- 104، 472.

[85]- التيفاشي، ن م، ص. 185.

ينتمون إلى نفس القرية أو القبيلة، وبالتالي كان إقدامهم على قتل شخص ما خلال سرقته إنما خوفا من أن يقر عليهم إذا عرفهم[101]، وهذا وارد في كتب النوازل على لسان من نجا من القتل في مثل هذه الحوادث[102]، وكذا كتب المناقب التي تحفل بحالات السرقة الفردية التي لم يكن أصحابها يميزون بين غني أو فقير أو حتى ولي، كالذي عزم على سرقة أضحية العيد من قطيع الولي أبي ينيكْفْ[103]، أو السارقان اللذان ضربا على الولي أبي جبل يعلى بنواحي مدينة فاس "ليأخذا عباءته"[104]، وغيرهم من أهل القرى الذين كانت تدفعهم الحاجة إلى اقتفاء أثر المارة ليلا أو نهارا لانتزاع بعض أموالهم أو ثيابهم[105]

نتائج

وعموما فقد شكلت اللصوصية إحدى مظاهر الفقر من جهة، وإحدى وسائل محاربته من جهة ثانية في مجتمع المغرب العصر الوسيط، كما شكلت إحدى سبل العيش عند هؤلاء الفقراء المفلسين والمنكوبين والنازحين، الذين تكالبت عليهم الأرزاء فما عاد أمامهم من حل إلا الانخراط في صفوف أهل الدعارة والحرابة لكسب قوتهم اليومي، فلم تختلف حدة هذه الظاهرة سواء ظهرت في بادية أو حاضرة شريطة أن يكون لها نفس السبب الذي هو الفقر وضيق ذات اليد، لكن تكمن وراء تعاطي اللصوصية والحرابة عند مجتمع المغارب في العصر الوسيط أسباب متضافرة حيت تتكالب على إنسان المرحلة قيد الدراسة بالإضافة إلى الفقر الاقتصادي ظروف طبيعية وسياسية واجتماعية قاسية فلم يجد معها بدا سوى انتحال اللصوصية والحرابة كنمط للعيش والبقاء، كما ساهمت بالمثل شقاوة الظروف الطبيعية وضنك الحياة في بعض البيئات القاحلة في ظهور أشكال من السلوكات العدوانية كالسرقة وقطع الطرق على الساحة الاجتماعية آنذاك.

بيليوغرافيا

- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1999م.
- ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التاديلي، التشوف إلى رجال التصوف، تح أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 2، 1997م
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس واللمغرب، قسم الموحدين، تح، محمد ابراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الغفرب الاسلامي، بيروت، 1985م.
- ابن عسكر محمد، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تح، محمد حجي دار المغرب، الرباط، 1976
- ابن الخطيب لسان الدين، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تح ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط 2، لبنان، 1956.

مشاهدات، تح، أحمد مختار العبادي، مؤسسة الشباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، سنة 1983م.

- ابن خلدون، عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط 1، 1413 هـ/ 1993م،
- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد، المستطرف في كل فن مستظرف، تح محمد خير طعمة الحلبي، دار المعرفة، بيروت، ط 5، 1429هـ/2008م
- ابن فرحون، برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، ج 2، خرج أحاديثه وعلق عليه وكتب حواشيه، الشيخ جمال عشلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1416هـ/1995م
- البادسي عبد الحق، المقصد الشريف والنزع اللطيف، في التعريف بصلحاء الريف، تح سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1982،
- التيفاشي، شهاب الدين أحمد، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، تح، جمال جمعة، رياض الدين للكتب والنشر، لندن- قبرص، ط 1، سنة 1992م
- الزجالي، أبو يحيى عبد الله بن أحمد القرطبي، أمثال العوام في الأندلس، تح، محمد بن شريفة، ق 2، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، د ت
- العبدري الحيحي، أبو عبد الله محمد بن محمد، الرحلة المغربية، تح، محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، الرباط، 1968م.
- السبكي، تقي الدين علي بن عبد الكافي، فتاوى السبكي، ج 2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط سنة 2004م
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، تح، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م
- مارمول كاربخال، إفريقيا ج 3، تر، محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، الجمعية المغربية للترجمة والنشر، مكتبة المعارف، الرباط، 1409 - 1408هـ / 1989 - 1988م
- الوزان الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا ج 1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 2، 1983م.
- الونشريسي، أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، ج، 8، 9، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1981م
- المراجع
- أدونيس، الثابت والمتحول في الإبداع والاتباع عند العرب، ج 1، دار الساقي، بيروت، ط 8، سنة 2002م،
- استيتو محمد، الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و17، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، ط 1، سنة 2004م.

---

[101]- المقري، نفح الطيب، ج 1، م س، ص. 219.

[102]- يدمّى الرجل على يد سارقين ثم يأتي يقول: "لا أدري من أصابني من الضاربين لكونهما ضرباني في فور واحد"، الونشريسي، م س، ج 2، ص. 298.

- "رجل يجتمع إليه النفر فتقطع يده ولا يدري الشهود من فعله منهم" ن م، ج 2، ص. 297.
- "من قتل رجلا في وسط النهار فهرب فطولب حتى اقتحم بيتا فيه رجلان فلا يعرف من الثلاثة"، ن م، ج 2، ص. 299. رجل جرح على يد لصوص جاؤوا لأخذ زرعه لكنه يقول: "ما عقلت منهم إلا كلام ثلاث رجال"، ن م، ج 2، ص. 528.
- رجل جرح ليلا على يد خمسة لصوص لكنه يقول: "لم أعقل منهم إلا كلام رجلين"، ن م، ج 2، ص. 528.

[103]- "...كان في ابتداء أمره سارقا، فاحتاج إلى أضحية... فمرّ إلى قطيع من الغنم لأبي ينيكْفْ، وكان عبدا صالحا، فمرّ غلى فحل من غنمه، فجعله على ظهره..."، ابن الزيات، م س، ص. 234.

[104]- ابن الزيات، م س، ص. 103.

[105]- ن م، ص. 309، 361، 383.

- إسماعيل محمود، المهمشون في التاريخ الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، المكتبة الوطنية للمملكة الوطنية، 2004،
- بوتشيش، إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء، دارالطليعة، بيروت، ط 1، 1993م.

المهمشون في تاريخ الغرب الإسلامي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2014م،

- البياض عبد الهادي، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس القرن 6 - 8 الهجري، دار الطليعة بيروت، ط 1، 2008م،
- حميش سالم، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1998م،
- فرج فودة، الحقيقة الغائبة دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، منشورات عيون المقالات، ط 2، 1989م،
- طريفي، محمد نبيل، اللصوص في العصر الجاهلي والإسلامي ج 1، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط 1، 1425 هـ/ 2004م،

- Berque.J, **Les structures sociales du Haut-Atlas**, P.U.F, Paris, 1925

- BRAUDEL .F, **La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philipe II**, 2t, Armand Coline, Paris, 1970